

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساد آبي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضيحة

الرياض - السعودية

﴿ءَامِنًا﴾ . . . الآية [الفصص: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ . . . الآية [المائدة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٣﴾﴾ [قريش].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنّ الذين جاهدوا فيه، أنّه يهديهم إلى سبل الخير والرشاد، وأقسم على ذلك بدليل اللام في قوله: «لنهدينهم».

وهذا المعنى، جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٤]. كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قد قدمنا إيضاحه في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهَمَّ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾، مصدر مؤكد لنفسه؛ لأن قوله قبله: ﴿وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتِيُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ هو نفس الوعد كما لا يخفى، أي وعد الله ذلك وعداً.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أربعة أمور:

الأول: أنه لا يخلف وعده.

والثاني: أنّ أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون.

والثالث: أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

والرابع: أنّهم غافلون عن الآخرة. وهذه الأمور الأربعة جاءت موضحة في غير

هذا الموضوع:

أما **الأول** منها: وهو كونه لا يخلف وعده، فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ ءَلَيْمِكَادُ﴾ [آل عمران: ٩]. وقد بينّ تعالى أنّ وعيده للكفار لا يخلف أيضاً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿١٨﴾﴾ مَّا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨، ٢٩].

والتحقيق: أن القول الذي لا يبدل لديه، في هذه الآية الكريمة، هو وعيده للكفار. وكقوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ حَقٌّ وَعِيدٌ﴾ [ق: ١٤]. وقوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أُرْسِلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]، فقوله: (حق) في هاتين الآيتين. أي وجب وثبت، فلا يمكن تخلفه بحال.

وأما **الثاني** منها: وهو أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة، فقد بين تعالى، في آيات أن أكثر الناس هم الكافرون، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ بَيْنَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوْلِيَانِ﴾ [الصافات: ١٦١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٦١]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين - جلّ وعلا - أيضاً في آيات من كتابه أن الكفار لا يعلمون كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَأْذَانٌ لَا تَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفُلْفُلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما **الثالث** منها: وهو كونهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فقد جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، أي في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [١٦] ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعُلُوبِ... الآية [النجم: ٢٩ - ٣٠].

وأما **الرابع** منها: وهو كونهم غافلين عن الآخرة فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ [٣٦] إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا... الآية [المؤمنون: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

تنبيه: اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان: أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى الله بها ضعاف العقول من

المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها، واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق، وهذا جهل فاحش، وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وما أعظمه، وما أحسن تعليمه.

فقد أوضح - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون، ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولاً أولاً، فقد نفى عنهم - جلّ وعلا - اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً عن خلقهم، فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورزقهم، وسوف يميتهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم، ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم، كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة، ثم لما نفى عنهم - جلّ وعلا - اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعاً من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره. وعاب ذلك النوع المذكور من العلم بعيين عظيمين:

أحدهما: قلته وضيق مجاله؛ لأنّه لا يجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا، والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض - جلّ وعلا -، والعلم بأوامره ونواهيه، وبما يقرب عبده منه، وما يبعده منه، وما يخلد في النعيم الأبدي والعذاب الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما: هو دناءة هدف ذلك العلم، وعدم نبل غايته؛ لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا، وهي سريعة الانقطاع والزوال، ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ أنه بدل من قوله قبله «لا يعلمون»، فهذا العلم كلا علم لحقارته.

قال الزمخشري في الكشف، وقوله: «يعلمون» بدل من قوله: «لا يعلمون»، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه، ويسد مسده؛ ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا.

وقوله: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها. وهم الثانية، يجوز أن يكون مبتدأ، وغافلون خبره، والجملة خبر «هم» الأولى، وأن يكون توكيداً للأولى، وغافلون: خبر الأولى، وأياً كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة، ومقرها، ومحلها وأنها منهم تتبع وإليهم ترجع. انتهى كلام صاحب الكشف.

وقال غيره: وفي تنكير قوله: ظاهراً تقليل لمعلومهم، وتقليله يقربه من النفي، حتى يطابق المبدل منه. اهـ. ووجهه ظاهر.

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم]، وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقاقتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار، إذا تعلمها المسلمون، وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به، على لسان نبيه ﷺ؛ كانت من أشرف العلوم وأنفعها؛ لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته - جلّ وعلا -، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى وسعيّاً في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى، والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ [٨].

لما بين - جلّ وعلا - أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون، ثم ذكر أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم غافلون، أنكر عليهم غفلتهم عن الآخرة، مع شدة وضوح أدلتها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾... الآية؛ والتفكير التأمل والنظر العقلي، وأصله إعمال الفكر، والمتأخرون يقولون: الفكر في الاصطلاح حركة النفس في المعقولات. وأما حركتها في المحسوسات فهو في الاصطلاح تخييل.

وقال الزمخشري في الكشاف: «في أنفسهم» يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل: أو لم يحدثوا التفكير في أنفسهم: أي في قلوبهم الفارغة من الفكر، والفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضمّره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكير كقولك: تفكر في الأمر؛ أجال فيه فكره، و«ما خلق» متعلق بالقول المحذوف، معناه: أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل معناه: فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح، وحكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه، وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب.

ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون]، كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً، والباء في قوله: «إلا بالحق» مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر، واشترى الفرس بسرجه ولجامه، تريد: اشتراه وهو متلبس بالسرج واللجام غير منكف عنهما، وكذلك المعنى: ما خلقها إلا وهي متلبسة بالحق مقترنة به.

فإن قلت: إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه؟

قلت: معناه أو لم يتفكروا في أنفسهم، التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم، وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بقاء ربهم: الأجل المسمى. انتهى كلام صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: من أن خلقه تعالى للسموات والأرض وما بينهما، لا يصح أن يكون باطلاً، ولا عبثاً بل ما خلقهما إلا بالحق؛ لأنه لو كان خلقهما عبثاً لكان ذلك العبث باطلاً ولعباً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل ما خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما بينهما إلا بالحق، وذلك أنه يخلق فيهما الخلائق، ويكلفهم في أمرهم وينهاهم ويوعدهم ويوعدهم، حتى إذا انتهى الأجل المسمى لذلك بعث الخلائق وجازاهم، فيظهر في المؤمنين صفات رحمته ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، وتظهر في الكافرين صفات عظمتهم، وشدة بطشه، وعظم نكاله وشدة عدله وإنصافه، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله:

كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمِيعٍ ﴿٤٤﴾ [الدخان]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ الآية. بعد قوله: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يبين ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ ﴿٨٥﴾ [الحجر: ٨٥]. فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ﴾، بعد قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يوضح ذلك. وقد أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٦١﴾ [النجم].

وقد بين - جلّ وعلا - أن الذين يظنون أنه خلقهما باطلاً لا لحكمة الكفار، وهددهم على ذلك الظن الكاذب بالويل من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ [ص]، وبين - جلّ وعلا - أنه لو لم يبعث الخلائق ويجازهم؛ لكان خلقه لهم أولاً عبثاً، ونزه نفسه عن ذلك العبث سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١١﴾ [المؤمنون].

فهذه الآيات القرآنية، تدل على أنه تعالى ما خلق الخلق إلا بالحق، وأنه لا بد

باعثهم، ومجازيهم على أعمالهم، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون هذا، فكانوا غافلين عن الآخرة، كافرين بلقاء ربهم.

وقوله تعالى في الآيات المذكورة: «وما بينهما» أي ما بين السماوات والأرض، يدخل فيه السحاب المسخر بين السماء والأرض، والطير صافات، ويقبضن بين السماء والأرض والهواء الذي لا غنى للحيوان عن استنشاقه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا بَسِيرُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَهَا لِسَبِيلٍ مُّقْبِرٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر]، وفي المائة في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية [المائدة: ٣٢]. وفي هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وفي الإسراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾... الآية [الإسراء: ١٧]، وفي غير ذلك.

وقوله تعالى في آية الروم هذه: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِعَاثِرِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٧﴾﴾. قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، «كان عاقبة» بضم التاء اسم كان، وخبرها السوأي، وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «ثم كان عاقبة الذين» بفتح التاء، خبر كان قدم على اسمها على حد قوله في الخلاصة:

وفي جميعها توسط الخبر أ ج ز.....

وعلى هذه القراءة فالسوأي اسم كان، وإنما جرد الفعل من التاء مع أن السوأي مؤنثة لأمرين:

الأول: أن تأنيثها غير حقيقي.

والثاني: الفصل بينها وبين الفعل كما هو معلوم.

وأما على قراءة ضم التاء، فوجه تجريد الفعل من التاء هو كون تأنيث العاقبة غير حقيقي فقط.

وأظهر الأقوال في معنى الآية عندي، أن المعنى على قراءة ضم التاء، كانت عاقبة المسيئين السوأي، وهي تأنيث الأسوأ، بمعنى الذي هو أكثر سوءاً: أي كانت عاقبتهم العقوبة، التي هي أسوأ العقوبات، أي أكثرها سوءاً وهي النار أعادنا الله، وإخواننا المسلمين منها.

وأما على قراءة فتح التاء، فالمعنى: كانت السوأى عاقبة الذين أساءوا، ومعناه واضح مما تقدم، وأن معنى قوله. «أن كذبوا» أي كانت عاقبتهم أسوأ العقوبات لأجل أن كذبوا. وهذا المعنى، تدل عليه آيات كثيرة توضح أن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه، وسوء عاقبته، والعياذ بالله. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وفي الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وفي غير ذلك.

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن السوأى منصوب بأساءوا؛ أي اقترفوا الجريمة السوأى خلاف الصواب. وكذلك قول من قال: إن «أن» في قوله: «أن كذبوا» تفسيرية، فهو خلاف الصواب أيضاً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في البقرة، والنحل، والحج، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شَفَعَاءُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ [البقرة: ٤٨]، وفي غير ذلك. قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [١٧] ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [١٨]. قد قدمنا في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي قوله هنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾، الآيتين من الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس، وأوضحنا وجه ذلك مع إيضاح جميع الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في ذكرنا براهين البعث في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَحْنَا بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾... الآية [النحل: ١١]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [النحل: ٧٢]:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ .

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة

البقرة في الكلام، على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُمُ﴾، قد أوضح تعالى في غير هذا الموضع: أن

اختلاف ألوان آدميين، واختلاف ألوان الجبال، والثمار، والدواب، والأنعام، كل

ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته، واستحقاقه للعبادة وحده. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ

اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيدٌ سُودٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَشْجَارِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾، واختلاف

الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو

المؤثر - جلّ وعلا -، وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال.

وقد أوضح تعالى إبطال تأثير الطبيعة غاية الإيضاح بقوله في سورة الرعد: ﴿وَفِي

الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجِرَاتٌ﴾، إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]. وقرأ هذا الحرف حفص

وحده عن عاصم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾، بكسر اللام: جمع عالم الذي هو ضد

الجاهل. وقرأه الباقون: للعالمين بفتح اللام كقوله: رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في

الكلام على قوله تعالى: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ

رَبِّكُمْ﴾ . . . الآية [الإسراء: ١٢]. وفي سورة الفرقان. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآية.

قد قدمنا ما يوضحه من الآيات مع تفسير قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في سورة الرعد،

في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ . . . الآية

[الرعد: ١٢]، وسنحذف هنا بعض الإحالات لكثرتها.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ

فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾ . قد قدمنا إيضاحه بالقرآن في سورة النحل، في الكلام على قوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ . قد قدمنا الآيات

الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، أي يتفرقون فريقين: أحدهما في الجنة، والثاني: في النار.

وقد دلت على هذا آيات من كتاب الله كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٤٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرْقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، ويدل لهذا قوله بعده ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَهْدُونَهُ﴾ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾، وقد أشار تعالى أيضاً للتفرق المذكور هنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّرُ النَّاسُ أَشْنَاًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿٤٦﴾ [الزلزلة].

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً﴾. قد بين تعالى الضعف الأول الذي خلقهم منه في آيات من كتابه، وبين الضعف الأخير في آيات آخر، قال في الأول ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿٢٦﴾ [المرسلات]. وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُتِينٌ﴾ ﴿٤١﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ الآية [يس: ٧٧]. وقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿٥١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦١﴾ [الطارق] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ [المعارج]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الضعف الثاني: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ بُرِّدُ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، وقال: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [يس]، إلى غير ذلك من الآيات. وأشار إلى القوة بين الضعفين في آيات من كتابه كقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُتِينٌ﴾ [النحل: ٤]، وإطلاقه نفس الضعف، على ما خلق الإنسان منه، قد أوضحنا وجهه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٧]. وقرأ عاصم وحمره «من ضعف» في المواضع الثلاثة المنخفضين، والمنصوب بفتح الضاد في جميعها، وقرأ الباقون بالضم.

واختار حفص القراءة بالضم وفاقاً للجدهور. للحديث الوارد عن ابن عمر عن النبي ﷺ من طريق عطية العوفي أنه - أعني ابن عمر - قرأ عليه ﷺ: «من ضعف» بفتح الضاد، فرد عليه ﷺ، وأمره أن يقرأها بضم الضاد، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه غيرهما. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلُنَا عَنْ سَاعَتِهِ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٥٥﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُمْ فِي كِتَابِهِ لَعْنَةٌ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٥٦]. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنّ الكفار إذا بعثوا يوم القيامة، وأقسموا أنهم ما لبثوا غير ساعة يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان، ويدخل فيهم الملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحون: والله لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث، ولكنكم كنتم لا تعلمون. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في سورة يسّ على أصح التفسيرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

والتحقيق: أن هذا قول الكفار عند البعث، والآية تدل دلالة لا لبس فيها، على أنهم ينامون نومة قبل البعث كما قاله غير واحد، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة التي هي نومة موت يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، أي هذا البعث بعد الموت، الذي وعدكم الرحمن على السنة رسله، وصدق المرسلون في ذلك، كما شاهدتموه عياناً، فقوله في يسّ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، قول الذين أوتوا العلم والإيمان، على التحقيق، وقد اختاره ابن جرير، وهو مطابق لمعنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ الآية.

والتحقيق أن قوله «هذا»: إشارة إلى ما وعد الرحمن وأنها من كلام المؤمنين، وليست إشارة إلى المرقد في قول الكفار ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: ٥٢]، وقوله في كتاب الله: أي فيما كتبه وقدره وقضاه. وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾... الآية [يس: ٥٢] من قول الكفار، ويدل له قوله في الصفات: ﴿وَقَالُوا يَبُولْنَا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ [٢٠] هذا يَوْمُ الَّذِينَ [الصفات: ٢٠، ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قد قدّمنا ما فيه من اللغات، والشواهد العربية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدَّتْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَلُونَ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فِرَاطٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء]، وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس]... الآية [يونس]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْفِظَنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، قد قدّمنا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا﴾ [الإسراء]، أن الله تعالى قد بين في بعض الآيات القرآنية أنه يخاطب النبي ﷺ بخاطب لا يريد به نفس رسول الله ﷺ، وإنما يريد به التشريع.

وبيّننا أن من أصرح الآيات في ذلك قوله تعالى مخاطباً له ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي﴾ . . . الآية [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل نزول ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾، بزم من طويل، فلا وجه البتة لاشتراط بلوغهما، أو بلوغ أحدهما الكبر عنده. بل المراد تشريع بر الوالدين لأتمته، بخطابه ﷺ.

واعلم: أن قول من يقول: إن الخطاب في قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ لمن يصح خطابه من المكلفين، وأنه كقول طرفة بن العبد:

* ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً *

خلاف الصواب.

والدليل على ذلك قوله بعد ذكر المعطوفات على قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ . . . الآية [الإسراء: ٣٩]. ومعلوم أن قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾، خطاب له ﷺ كما ترى، وذكرنا هناك بعض الشواهد العربية على خطاب الإنسان، مع أن المراد بالخطاب في الحقيقة غيره.

وبهذا تعلم أن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وقوله: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ أَيْمَانًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، يراد به التشريع لأتمته؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك الكفر الذي نهى عنه.

فائدة: روي من غير وجه: أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ناداه رجل من الخوارج في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) [الزمر]، فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتخْفِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٦).

* * *

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿الْم ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ٣﴾ . . .
 قد قدمنا الآيات الموضحة لقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ٣﴾ في أول سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الْم ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].
 قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَمْ تُسِئْ كَرِيحًا كَانَتْ لَمْ يَسْمَعَهَا كَانَتْ فِي أُذُنَيْهِ وَقُرْآنًا فَنَسَّرَهُ لِعِبَادَاتِ اللَّهِ ٧﴾ . ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن الكافر إذا تنلى